فصلان عراقيان[1]

لامين الريحاني

— ١ —

— وكان الكهان في معبد عِنليل بأور ونيبور يأمرون ملوك سُومير الدولة الاول في وادي الرافدين (٣٥٠٠ قبل المسيح)

— وما الذي صنع اولئك الملوك والكهان لخير السواد من الناس؟

— وسرجون الاول ملك أكاد اكتسح السوريين، وفتح بلادهم ومدّ ملكه جنوباً الى الخليج، وشمالاً الى الجبال (٢٧٥٠ ق. م.)

— وما الذي قام به سرجون وخلفاؤه لخير السواد من الناس؟

— ومن الجبال في الشرق والشمال انحدر بجيشه كدُور نَاخُنتا ملك عيلام، فغزا بلاد سرجون واكتسحها، وحمل تماثيل آلهتها الكلدانيين الى أشوش عاصمة عيلام (٢٢٨٦ ق. م.)

— وما الذي صنع كدور هذا وما الذي شاد خلفاؤه العيلاميون لخير السواد من الناس؟

مدنية القصور والمعابد للملوك والكهان،

والجهل والفقر والعبودية للسواد من الناس

— وكان كهان عشتروت بنينوه، وكهان مردوخ ببابل، يتعطرون السحر والشعوذة، ويملأون بطونهم من ضحايا الهيكل، بينما ملوك بابل وآشور يحتربون ويتطاحنون من اجل السيادة والمجد

— السيادة والمجد للكهان والملوك، والسحر والنير للسواد من الناس

— وحورابي اول المشترعين، وآشوربنيبال اول المحبين للعلم والعلماء —

— واحتان في البادية، مصباحان في الليل الدامس

— وسنحاريب الفاتح، ونبوخذ نصر المصلح —

— ناهب فينيقية، ومذلّ اسرائيل

من جبال الشمال تدفق التيتون، ومن جبال الشرق انحدر اكزارس يقود جنوده الماديين، ومن السهول في الجنوب سارع جيش بابل الى نجدة جيش مادي، وقد حالف النهران المحاصرين — طغى الفرات، وطغى دجله

(١) من كتاب « العراق » تأليف الكاتب الكبير امين الريحاني وينتظر صدوره قريباً

طغيان الجيوش الفاتحة — وصاحوا كلهم قائلين : لتسقط نينوه ! سقطت نينوه (٦٢٥ ق . م .) وبعد ست وثمانين سنة (٥٣٩ ق . م .) سقطت بابل

— دول تدول ، ومجد بعد مجد يحول ، مجد سومر وعيلام ، ومجد بابل وآشور . ثم ينتقل صولجان الملك من يد الساميين في وادي الفرات الى يد الآريين من الملوك

— وما الذي صنع الآريون من اجل السواد من الناس ؟ أفي سبيل المجد تُشيَّد الدول ام في سبيل الانسان ؟ انهم ظالمون، الساميون والآريون جميعاً . انهم الناهبون الفاسقون . شيدوا المعابد والقصور ، وسخّروا لها العباد . ألّهوا انفسهم ، وكانوا قساة عتاة ، وكانوا عبيداً للشهوات

— ومن مهد الثقافة الغربية جاء تلميذ ارسطو ، الشاب العجيب اسكندر المقدوني . اجتاز البحر الى الشاطىء الاسيوي . قاد الوف الثلاثين ، وكان ظافراً في كل مكان . هزم الفرس في واقعة الغرانيق وفتح فينيقية ، واستولى على مصر ، وتعقب الملك دارا الى بلاد الرافدين ، فأدركه قرب اربيل ، وكانت الوقعة الفاصلة بين الشرق والغرب (٣٣١ ق . م .)

— في اربيل أُبدل نيرٌ من حديد عتيق بنير من حديد مصقول . راح الفرس وجاء الاغريق

— كان الاسكندر فاتحاً باسم العلم والنور

— كان الاسكندر مصاباً بداء الصرع . غزا الشرق باسم الآلهة، وعاد منهُ نافقاً على الارض والسماء

— ولكنهُ في بابل كان مجدداً

— شاء الاسكندر ان « يُأغرق » العالم ، فكانت بابل النهاية لصرعة — لسكرة — مفجعة ، وكانت النهاية لحلم ذهبي

— قد تحقق قسم من ذلك الحلم ، فبدت بعد الاسكندر دلائل التآخي بين الشرق والغرب بدت ثم رُدَّت . فقد تغلب البرثيون التورانيون على السلوقيين الاغريق (١٢٦ ق . م .) يوم كان ذاك التآخي في ازدهاره الاول ، نقضوا عليه

زُرعت بذوره في ارض طيبة في الشرق الادنى

— فجاءت رومة بجيوشها تدوسهُ وتسحقه سحقاً . وما كانت رومة ممن يحملون الاحلام

— ومع ذلك فقد كان للرومان فضل يذكر في الرقي والعمران

— عمروا المعابد لآلهتهم ، وعبّدوا الطرق لجيوشهم . وكانت الآلهة ، مثل الجيوش ، تستولي على الشعوب والامم باسم رومه ، ومن اجل رومه ، بل من اجل القياصرة في رومه

— مدنية المعابد والطرقات هي خير من مدنية القصور والمعابد . القصور للملوك والطرقات للملوك والصعاليك

— ولكن السواد من الناس في عهد الرومان كان كالسواد في عهد بابل وآشور — عبيداً للكهان والملوك ، وحطباً للحروب

وما افلح الرومان في وادي الرافدين . بعد مائتي سنة من الاغارات والحروب سلمت رومة الى سلوقية . وما خلا الجو لسلوقية طويلاً . عاد الفرس الى العراق (٢٢٦ ب.م.) فاستولوا عليه ، واستمرت فيه الدولة الساسانية اربعمائة سنة

— والنزاع بين الشرق والغرب ؛ ذلك النزاع الذي كاد ينتهي بعد واقعة اربيل ، تجدد بشكل ديني بين المسيحية والوثنية . وما الذي أثار جدالاً ارباب الدين ، المتعلمين والمتعصبين ، غير السواد من الناس ، بل غير الناس جميعاً ؟

وفي ظلمات الجاهلية ، في سماء الحجاز ، سطع نور النبوّة ، نورُ دينٍ جديد . ومشى المؤمنون مكبرين ، وسلاحهم الاسلام وكلمة التوحيد ، فاجتازوا البوادي الى الارض الخضراء يرومون الفتح لله ، والخلاص للناس . حملوا على الروم في سورية ، وعلى الفرس في العراق . فكسروا جند هرقل في اليرموك (١٢ هـ ٦٣٤ م) وبددوا جنود فارس في القادسية(١٤هـ ٦٣٦ م) وبعد عشر سنوات من وفاة النبي رُفعت اعلام العرب فوق قصور فارس ، وفوق حصون دولة الروم

— هي نار النزاع بين الشرق والغرب تزداد اضطراماً . وهي كذلك اول شعلة من نزاع يجدّد بين الساميين والآريين ، بين العرب والعجم

— ولكن الاسلام دين التوحيد ، ودين العدل والاخاء والمساواة

— المساواة والاخاء في الحروب بين السنّة والشيعة ! والاخاء والمساواة في الحروب بين التتار والترك والمغول والعرب من السنيين !

— انما الحكام المسلمون ، وخصوصاً العرب منهم ، يفوقون سواهم في العدل والانصاف ، بل في كرم الاخلاق والمبرّات . فقد كانوا على الاجمال اكثر حلماً وعدلاً من اكثر ملوك الفرنجة

— يصح هذا في الخلفاء الراشدين ، وفي بعض الخلفاء الامويين والعباسيين . اما الدولة العباسية في العراق (١٣٢ — ٦٥٦ هـ ، ٦٢٦ — ١٢٥٨ م) فما كانت ، على الاجمال ، المثل الاعلى في العروبة ، ولا كانت المثل الاعلى في الاسلام . اول خلفائها « السفاح » وآخرهم العاجز المستعصم بالله

— وهرون الرشيد ؟ شخصية باهرة اجتمعت فيها الاضداد . فقد كان هارون ورعاً تقيّاً ، وخليعاً اثانيّاً . وكان كثير المبرات والبدوات ، عادلاً يوماً ، ويوماً ظالماً . تارةً حريصاً على ابهة الملك ، وطوراً يرمي بها الى الصيادين . . . ولا اذكر نكبة البرامكة . . .

— والمأمون ، ما تقول في المأمون ؟ المأمون ، غفر الله ذنبه في اخيه ، هو مثل حورابي في آشور . المأمون نجم العباسيين الساطع ، ونورهم اللامع على الدوام

— وجاء هولاكو بجيشه الجرار صائلاً فاتحاً

— هولاكو من كبار القواد المسلمين الذين وقف الاسلام على شفاههم ، وما دخل الى قلوبهم . فهو الذي اكتسح بغداد (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) — ودمرها ، واعمل السيف باهلها

— وحكم التتار في العراق نحو مائتين وخمسين سنة ثم فعاد الفرس (٩١٤ هـ — ١٥٠٩ م) فنزعوا السيادة منهم . ثم جاء الترك ، بعد ربع قرن ، فنزعوا السيادة من يد الفرس واستولوا على البلاد (٩٤٠ هـ — ١٥٣٥ م) وظلوا اسيادها اربعمائة سنة

— اربعمائة سنة مظفرة ، يبدو الى جانبها العهد التتاري عهداً سعيداً . ولو استطاع الترك ان يحكموا النهرين ، دجلة والفرات ، لكانا اليوم اجف من رمل البادية ، واقفر من ارض الجماد

وفي السنة السابعة عشرة من هذا القرن العشرين جاءت الجيوش من الغرب — رجال زُرق العيون ، متحدرون من الفريد الكبير السكسوني ووليم الفاتح النورمندي — فحملوا على الترك وانتصروا بمساعدة العرب عليهم . وقد قرأ قائد الجيوش على اهل البلاد مادةً من عهد مقدس يضمن للناس حقوقهم ، العامة منها والخاصة على السواء . ولاول مرة في تاريخ العراق ، الاسلامي وغير الاسلامي ، يؤسس في البلاد مجلس نيابي ، ويجلس على العرش ملك دستوري . اجل ، انها المرة الاولى في تواريخ دول هذا القطر كلها — الدول الآرية والسامية والتتارية والتورانية — التي تُعلن في البلاد ، وتضمن في دستورها ، حقوق الانسان

— ٢ —

كنت احمل في ذهني ، عند ما أقدمت على رحلتي العربية ، صورة تصورتها ، مما قرأت وسمعت ، لكل مدينة زرتها . وما تغير في الصورة بعد الزيارة شيء لا مهم . بل شاهدت في الصفة البارزة لكل مدينة ، فوق ما تصورت . فكانت صنعاء اكثر عمراناً وحسناً ، والحديدة اكثر خراباً وقبحاً ، وعدن اكثر تجارة واقل عروبة ، وجدة اكثر عتقاً ورثة ، وجيزان اشد وحشة ، والرياض اعجب قداسةً ، وعنيزة بين صحونها الذهبية اصفى جمالاً ، والهفوف اكثر غباراً وذباباً مما كنت اتصور او اظن . فما كذّبت هذه المدن ما سمعت ، ولا افسدت ما قرأت

اما بغداد فأمرها غير ذلك . قد جئت بغداد من افق كان في قديم الزمان كثير الانوار والالوان . جئتها وفي القلب أثر شديد مما لا يزال من تلك البهجة في كتب التاريخ والشعر . بل جئتها من عالم الاحلام المدبجة حواشيه بالذهب والارجوان ، وبكلمة اخرى لقد جئت بغداد من عالم « الف ليلة وليلة » . فهل يُعجب اذن لخيبتي ، وهل يُستغرب غمي ? بيد ان تباين الحقيقة والخيال هو في يومنا هذا كما كان في الماضي ولكن الزمان يلبس الاثنين ثوباً من التقليد والتقديس ، ويرفعهما في عيون الناس الى منزلة الوحي المنزل . يحق لنا اذن ، ونحن في هذا الزمان نعرض للبحث حتى الوحي المنزل ، ان نبحث وننتقد ما يجيئنا به التاريخ قبل ان نتقبله مصدقين معجبين ، او نرفضه مستنكرين

وليس هذا بالامر السهل . فمن ذا الذي يستطيع ان يجيب مثلاً على هذا السؤال : اين تنتهي الحقيقة في عهد العباسيين الذهبي ، واين يبدأ الخيال ? اني اسأل سؤالاً آخر . ولكني اقول قبل ذلك اني اصدق فرضاً كل ما قاله المؤرخون والراوئيون في ذلك العصر الذهبي . ثم اسأل : هل كانت

اسباب تلك المدنية منتشرة شاملة ؟ هل كانت بغداد كلها ، او هل كان جُلّها ، على طراز ما كان من بناء وهناء للخلفاء والامراء والاعيان ؟ وبكلمة أخص : هل كانت المرافق مثلاً واحدة في المدينة ، وهل كانت عامة ، على انواعها ، كما هي في هذا الزمان ؟

وما هي الحقيقة في عصر هرون الرشيد؟ وما هي الحقيقة في بغداد هرون؟ هل ننكر ما جاء بخصوصها في «الف ليلة وليلة» وفي التواريخ كثير مما في تلك الحكايات ؟ لا شك ان بغداد كانت كالقاهرة او كدمشق او كانت تفوقها في عمرانها وبهجتها . ولا شك ان الرشيد كان يفتخر بها ، ويفاجئها من حين الى حين بطرائفه وغرائبه . ولا شك ان الصيادين كانوا يغنون بل يناموق على شاطيء دجلة ، وهم يرمون بشباكهم للاسماك . اني اصدق كل ذلك لان الحقيقة بينها حتى في هذا الزمان . فهناك بغداد تزين البلاد ، وهناك مليك مثل هرون من صميم العرب، وله مثل ذلك العباسي رغبة في التنكر فراراً من أبهة الملك ، وحبًّا باستطلاع اخبار الرعية . وهناك كذلك الشعراء والصيادون .

أما تلك الصلة الاخوية ، الرشيدية ، « الألفليلية » بين الملك والصياد فانك لا تجدها . قد يكون الملك دمقراطيًّا ، وقد يكون الصياد فيلسوفًا سقراطيًّا . ولكنهما يسيران كلٌّ في سبيله ، في خطٍّ مستقيم أو معوجّ ، ولا يلتقي الخطّان حتى يجيء صاحب (اعــذبهُ اكذبهُ) أو صاحب الحكايات الشهرزاديات ، فيرى ذات يوم ظلَّ الملك قريباً من ظلّ الصياد ، فيلفق القصة ، او يؤلف الاسطورة ، التي يتذبذب فيها الخطّان — الظلاّن — ويدنو الواحد من الآخر ، ثم يتلامسان ، ثم يلتفان ويشتبكان ، ويتلوّنان بألوان قوس قزح ، ويكونان اشكالاً فنية ، رومنتيقية « ألفليلية » تبهر الابصار ، وتسحر ألباب الصغار والكبار . لست أنكر سحر الآيات ، وأعاجيب الحياة ؛ حتى في هذا الزمان . فالصياد البغدادي موجود كما قلت ، والملك كذلك من حقائق الوجود ، ولا يُستغرَب اذا أمسى الصياد في الاحلام ، وودَّ ان يكون ملكاً من ملوك الزمان ، ولا يستغرب اذا اشتهى الملك في بعض الاحايين ، ان يكون من الصيادين . وقد تتحقق رغبة الاثنين ، فيهتف الشعراء قائلين : لا حقيقة ثابتة غير حقيقتنا . الحقيقة الشعرية فوق كل الحقائق

واني اسأل سؤالاً آخر : كم كان حظ عامة الناس من تلك المدنية العباسية الباهرة ؟ هل كان يتمتع الصياد والملاح والاسكاف والفلاح بشيء من تلك النعمة التي كانت تبسط أجنحتها الذهبية في البلاط وفي قصور البرامكة ، وفي كل مكان قريب من ظلال القصور الملكية والاميرية ؟ هل كان للسواد من الناس بعض ما للخاصة من الثروة والثقافة والسعادة ؟ هل عم بغداد ذلك الترف والتأنق في العيش ، وذلك الزهو والسرور ، وذلك المجد والعز والتهذيب ؟

لا يلزم ان نعود الى التاريخ لنجيب عن هذا السؤال . فان لدينا في الحاضر الدليل والبرهان . ان في شرقنا اليوم — في المدن التي لا تزال شرقية ، او لم تمسّ بغير القليل من مدنية الغرب في البناء وفي المرافق العامة والخاصة — ان فيها من ظلمات الأسواق ومقاذرها ، ومن ازدحام الحياة

ومرتقانها ، ومن النتانة والعفونة والامراض ، ما لا تجده في مدن اوربا الا في بعض أحيائها التي تدعى Slums وهي مهد الاوبئة الادبية والاجتماعية والروحية والجسدية . أما الفرق بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية فهو ان مثل هذا الحي في الاولى جزء صغير منها، وهو في الثانية الجزء الاكبر

وهذا الجزء الاكبر هو المدينة . أما الدور والقصور وان كانت في قلبها فليست هي منها . في الدور والقصور المرافق والاثاث والاعلاق، وفي غيرها الفقر والقذارة والاقذار، والورع والاستسلام بين الاقذار . هناك أقلية تستمتع بخيرات الارض وطيبات الحياة ، وهنا السواد من الناس وهم قانعون بالنعيم المنتظر ، وعدا تعدهم به الكتب المنزلة . هناك المدنية ، وهنا المدينة

ولما كان السواد من الناس يعيشون محرومين في الدنيا ، فانهم شغفين اكثر من سواهم بالقصص والاساطير التي تمثل النعيم المنشود

حقيقة النعيم ، أو بعض حقيقته ، للامراء والاغنياء . وحديث عنه — حكاية أو اسطورة او قصيدة — للسواد من الناس . ومع ان السينما تغزو اليوم بلاد القصص ، فيتهافت العرب عليها ليروا ويسمعوا شهرزاد هذا الزمان — الشاشة البيضاء وما وراءها من سحر النطق والتصوير — فان القصاص لا يزال مالكاً سعيداً ، وله عرشه في القهاوي . وهذا الشغف بالحكايات والآيات والمعجزات ، هذا التعظيم للخيال ، هذا التقديس للمحال ، لا يزال في الشرق من الخلال البارزة. فهو يقنع بظل الحقيقة . ويقبل متورعاً مجبوراً ما يحاك من الظلال كما لو كان حقائق دينية . ثم يملل النفس بلحم تلك الحقيقة ودمها ، بجسمها المادي . كذلك كان الشرق ، ولا يزال على الاجمال كذلك

وقد شحذت هذه المخيلة منه ، فأصبحت بعامل الوراثة شقيقة العواطف في السيطرة على نفسه — في عقائده واحكامه ، وفي آرائه واهوائه . ولا عجب اذا خضعت كلها للخيال ، واعتصمت بالمحال . فمن يستمتعون بطيبات الحياة لا يضيعون الوقت في أحاديثها . ومن يحرمونها يسترسلون في الاحلام التي تزينها المخيلة وتذهبها الاهواء . فتتمثل أمامهم ، اذ يسمعون القصاص أو يجلسون اليوم أمام الشاشة البيضاء ، صوراً مستغربة ، وصوراً خلابة . ومن هذه الصور صورة بغداد في عهد العباسيين الاول . وحسب اللبيب الاشارة الى ما يولده الشغف بالخيال ، والتلذذ بالمحال من حب المبالغة والغلو ، حتى في النظر الى حقائق التاريخ ، وحقائق الحياة اليومية . فالمؤرخ من هذا القبيل شاعر ، والشاعر مؤرخ ، والقصاص مؤرخ وشاعر معاً . بل هم ثلاثة أقانيم لشخص واحد عجيب

وكلهم مجمعون على ما كان من عظمة بغداد ومدنيتها . فقد كان فيها ، كما يقول المؤرخون، عشرة آلاف حمام ، وثلاثون الف مسجد ! فاذا كان عدد سكان المدينة مليوني نفس ، كما جاء في التواريخ يكون لكل مائتي شخص حمام ، ولكل ستة وستين من السكان مسجد واحد . والمائتان يقيمون في ثلاثين بيتاً ، والستة والستون في عشرة بيوت . فهل يُعقل ان يكون لكل ثلاثين بيتاً حمام عمومي ولكل عشرة بيوت مسجد ؟

العربي يرى ولا يعد . وهو في التقدير ، اذا كان ما يراه كثير العدد ، يعوّل على الخيال دون العقل . وهاك المثل . اذا دخل اعرابي الى بغداد اليوم من الجهة الغربية يرى في ناحية الكرخ ، عند الجسر ، الى الجانبين ، عدداً من القهاوي . ثم يرى صفين آخرين في ناحية الرصافة كذلك عند الجسر ، بينه وبين شارع الرشيد ؛ واذا ما مشى في شارع الرشيد الى جامع مرجان يرى بين كل مائة متر واخرى جماعات من الناس يدخنون الاراكيل ويلعبون الطاولة والدومينو . فاذا سئل بعد ذلك ماذا رأى في بغداد يقول : القهاوي القهاوي في كل مكان . فيحدث عنه من يسمعه ويقول : ليس في بغداد غير القهاوي . فيحدث الثالث ويصفها بالمئات . فاذا سمعه المؤرخ يحدد المئات ، وقد يتجاوزها الى الالف او الالفين . . ولكن الشاعر يفضل عليها لفظة الالوف لانها في الشعر اعذب من مائة ، وابلغ من الف . وعند ما يسمع القصّاص الشاعر ، ويطلق يلفق الحكايات ، فيحدث عن قهاوي بغداد ولا حرج . كذلك تجيئنا الاحصاءات وقد بلغت عشرة آلاف من الحمامات ، وثلاثين الفاً من المساجد[1] وعشرات الالوف من القهاوي . وليس في بغداد اليوم ما يتجاوز الاربعمائة قهوة ، اكثرها في الشارع الجديد ، شارع الرشيد . وليس فيها من الجوامع اكثر من خمسين ، اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من المساجد

وتليلي من الارقام . فسيخبرني لي غداً احد أرباب التاريخ المحققين المدققين ويوبخني قائلاً : ان في بغداد خمسة وخمسين جامعاً واربعمائة وعشر قهوات . فيبري له محقق مدقق آخر ويقول : القهاوي هي ثلاثمائة وتسعون عداً ، والجوامع تسعة واربعون . وتحتدم بعد ذلك المناقشة ، فيخرج من أحد القهاوي جاحظها ليعدها . ويتبرع أحد الائمة او المؤذنين باحصاء الجوامع والمساجد

وعندئذ يتبين اننا كلنا في خطأ معيب ، وان كان الفرق ، صاعداً او نازلاً ، لا يتجاوز العشرة او العشرين . بيد ان ذلك في علم التاريخ ارتقاء يذكر . والفضل فيه لمن وجه السؤال ذات يوم الى أحد الصيادين الذي كان يطبخ السمك المسقوف على شاطىء النهر ، تحت القهوة ، بالقرب من جسر مود الى جانب الكرخ . سأله : وهل تعرف كم ببغداد من القهاوي ؟ فأجاب : بقدر ما في دجلة من السمك . فقلت : وكم تظن عددها في طرف هذا الشارع ؟ فقال : كله قهاوي ، ولا يحصيها الا الله

فرحت أعدها — أحصيها — فاذا هي ، من تمثال الملك فيصل الى الجسر ، تسع قهوات لا غير

ويلي من الارقام . فقد يتعطل الفونوغراف في احدى هذه القهاوي ، فيولي « ابناء الدومينو والشيشة » وجوههم شطر قهوة اخرى ، فونوغرافها حامي ، والحانه صياحة — كردية تركية مصرية — فيضطر صاحب القهوة المعطل فونوغرافها ان يقفل بابه ، ويودع أصحابه . او قد يجيء كردي بفونوغراف جديد ، وينصبه تحت النخيل ، ويضع حوله طاولتين وديوانين من الخشب العادي

(١) عدد الجوامع التاريخية في القاهرة نحو خمسين . اضف اليها ضعف هذا العدد او ضعفيه من الجوامع الجديدة والمساجد . وفي مدينة نيويورك من الكنائس والمعابد الكبيرة ، المسيحية والاسرائيلية ، مائة وخمسون عداً ، وجميعها الكبيرة والصغيرة لا تتجاوز الثلاثمائة

المعرّس ، فيزداد عدد هذه التهاوي أو ينقص ، قبل ان يصدر هذا الكتاب قهوة واحدة أو قهوتين

أعوذ بالخيال من الارقام . واعيذك ، أيها القارىء العزيز منها . تعال اذن نعتصم بالخيال الشعري ، وعندي منه الآن ما لا ينكره العقل ، ولا ينفر منه التاريخ

هاك دجلة ، وهاك القفة فيه . تلك القفة التي صنعت بعد الطوفان في مرفأ أور الكلدانيين . وهي اليوم ، كما كانت في زمن العباسيين على الاقل ، تصنع من الخوص ، وتطلى بالقار داخلاً وخارجاً . فلو عاد الى هذا الوجود أحد نوتيي بغداد القديمة لكان يهلل للقفة : ويحمد الله انها لا تزال على شكلها الاول ، وان الف سنة لم تغير شيئاً فيها . وقد يكون النوتي البغدادي الذي يحرك مجذافها اليوم من سلالة صياد الرشيد ، وقد يكون الجد كذلك لسلالة مقبلة من الصيادين تستمر الف سنة اخرى . فيجيء رحالة القرن الواحد والثلاثين ، ويقف فوق دجلة على جسر معلق من حديد ، فيرى القفة ، ويعثر بعد ذلك على نسخة من هذا الكتاب ، فيستشهد مؤلفه على الف سنة في الاقل من عمرها

وما هذا كل ما في القفة . فبين صاحبها يجذف من حين الى حين ، ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر ، يبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمسها يد الفناء ، ولا تعبث بها يد التغيير . هناك ، على وجه دجلة ، في صباح يوم شمسه كريمة ، ترى اللؤلؤ في نقط الماء التي تتساقط من الجذاف ، وحوراً تمرح فوق الموجة ، وترى حول الموجة ، وهو يغطس فيها ، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج . فلو عاد الى هذا الوجود شاعر من شعراء نينوه ، او بنت من بنات بابل ، او كاهن من كهان أور لهللوا جميعاً — لهذه الشمس الشارقة ، المقيمة على عهدها ، الثابتة في خيرها ، الناثرة على دجلة ، حتى حول مجذاف « القفاف » لؤلؤ الذكريات ، وذهب الآمال — الذكريات والآمال التي تنعشنا اليوم وتحيينا ، كما أنعشت اهل أور ، وابناء بابل وآشور

وفي هذه الأرض المنبسطة ارض العراق تجيء الشمس في الشروق والغروب لطيفة النور ، ناعمة الوهج ، لا تحمل الكنانة ، كما يصورها الشعراء ، لتطارد النجوم ، وترمي بسهامها القباب والابراج

هي شمس الأم تحضن الارض في الصباح ، وتتغلغل حبًّا وحنيناً في قلب العراق وابنائه

هي شمس الفنان ، تلمس اللازورد في قباب الجوامع ، فيستحيل ياقوتاً اصفر ، وتكسو المآذن البيض بحلل من الدمقس المعصفر

هي شمس المحسن الاعظم ، تسير فوق السطوح المسوّرة ، ولا تكشف سرها ، وتقف فوق الجفون النائمة ، فتبشرها بعودة الحياة

ساعة في الصباح من السحر المبرور

ساعة من نعيم الحرارة والنور